مكية الجزء الثلاثون سورة الزلزلة آياتها ٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ ، مَكِّيَّةٌ، وقد ذهب بعضهم إلى أنها مدنية، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ فيها عن بعض شأن يومِ القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أَيْ: اهتزت من تحتِها وتَزلزلت جِبالُها وما فيها ولو تأملنا ما يقع من الزلازل، وما هو إلا مثل مما سيكون يوم القيامة لعلمنا شدةِ الحال الذي سيصير إليه الناس، فلو وقعت زلزلة ستةٌ بِمقياس رختر الذي وضعوه لمقياس الزلازل، لدمرت البنيان وقطعت الطرق، وسقطت الصخور، فكيف بزلزلةَ يومِ القيامة التي تتنافر معها الجبال، وتُدك ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٧].

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أخرجت ما فيها من الكنوزِ، وما فيها من المدفونين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٣-٤٤]، ولا يضيع شيء مما استُودع في الأرض، وينبت الإنسان من عجب الذنب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ**» قَالَ: «**وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ يتعجب من هذهِ الزلزلة، وهذا الخروج، ما شأن هذا الحادث الذي حصل للإنسان، وقد يكون قُولهم بلسان الحالِ، ولسان المقال، كما قال عَزَّوَجَلَّ مُخبِرًا عنهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس:٥٢].

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ تُخبر بما وقع فيها من خيرٍ أو شرٍ، وتشهد عليك أيُها الإنسان، وهيَ من جُملتِ الشهود ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ وهذهِ والله مُصيبة، كم من إنسان يتعاطى معصيةً في ليلةٍ ظلماء، وفي مكان قفرٍ لا يراهُ أحد، وإذا به يوم القيامة يُفضح على الأشهاد، وتشهد عليهم تلك البقع التي استتر واختفى فيها، زد على ذلك: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُبلي سريرته، فلا يبقى شيء من أمرِه إلا وتحدثت به، مع أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليمٌ بذاتِ الصدور، ولا تخفى عليه خافية. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة:٤]، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلْتَ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا**»، قَالَ: «**فَهُوَ أَخْبَارُهَا**»(١).

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ هذا الحديث الذي صدر منها؛ لِسببِ أمر الله لها بالشهادةِ والكلام، فالأرض خلق لله، تفعل ما أمر الله، فهي حِجارةٌ صماء، فإذا أذن الله لها بالكلام تكلمت ونطقت، ولا يُعجزهُ شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليس المراد بالإيحاء هنا إيحاء الوحي، وإنما المراد به الإذن والأمر. ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ: في ذلك اليوم يوم القيامة حين تزلزل الأرض ﴿ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾ أَيْ: يخرج الناسُ من قبورهم ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ متفرقين وجماعات، ولكلٍ منهم عملُة وفعلُه، وسبب خروجهم؛ ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ لينظروا ويجدوا جزاء تلك الأعمال التي تعاطوها في الدُنيا.

ثم أخبر بحالِ الناس مع هذهِ الأعمال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ وهذا في حق المؤمنين والموحدين، يجد ذلكَ أمام عينه، ويفرح به، وإن كان في وزن الذرة.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وإن كانت في الحقارة مثقال ذرة ولم يغفرها الله عَزَّوَجَلَّ فهي ثقيلة على الإنسان ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠]، ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧]، فكم عندنا من ما مثاقيل الذر ومما هو فوق ذلك من المعاصي والتقصير والذنوب إذا لم يتجاوز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والنسائي (١١٦٢٩)، والترمذي (٢٤٢٩).

واللهِ لو أن كل واحد منا يحاسب نفسهُ لرأى الهلكة إلا أن يشاء الله، ما هيَ الطاعات التي نتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟ ما هيَ العبادات التي تبذل لأجل الله عَزَّوَجَلَّ؟ وما هو التقصير الذي يحصل منا في جناب الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وقد ذكر النبي ﷺ الزكاة، والفضيلة في البقرِ والغنمِ والإبل والخيل، وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الحُمُرِ، فَقَالَ: «**مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ**»: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨](١).

وجاء عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨]، قَالَ: حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا(٢).

وهذه الآية دالة على عدل الله جَلَّجَلَالُهُ، وهو القائل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف:٤٩]، وقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بسورة الزلزلة في ركعتي الفجر، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا، مِنْ جُهَيْنَةَ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ «**يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا**»(٣).

وأما ما جاء من أنها تعدل ربع القرآن، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: حَدَّثَنِي سَلَمَةُ بْنُ وَرْدَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، **رُبُعُ الْقُرْآنِ**، وَ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الزلزلة:١]، **رُبُعُ الْقُرْآنِ**، وَ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر:١]، **رُبُعُ الْقُرْآنِ**»(٤)، فإسناده ضعيف؛ لضعف سلمة بن وردان، ولا يثبت في ذلك شيء، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٥٠٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) أخرجه أحمد (١٢٤٨٨).